مفاهيم
إيمانية
(٥)

الدعوة والاختيار في الكتاب المقدَّس

«لِذلِكَ بِالأَكْثَرِ اجْتَهِدُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْعَلُوا دَعْوَتَكُمْ وَاخْتِيَارَكُمْ ثَابِتَيْنِ»
(٢بط ١: ١٠)

(ب)

+ «لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ... وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ، فَهؤُلاَءِ دَعَاهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ، فَهؤُلاَءِ بَرَّرَهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ، فَهؤُلاَءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضًا» (رو ٨: ٢٩،٣٠):

إنَّ تحقيق الغاية من قصد الله في خلاص المؤمنين باسمه، يشتمل على كل التعبيرات المذكورة في كلمات الروح القدس المنطوقة بلسان بولس الرسول؛ فهي سلسلة واحدة متَّصلة الحلقات ومرتبطة ببعضها البعض، ولا يمكن فصلها من أجل إتمام هذا القصد الإلهي لخلاصنا، وهذا كلُّه يقع في نطاق معرفة الله السابقة للأمور والأحداث، والفائقة عن معرفتنا. والله حينما يذكر أحد هذه المسمَّيات عن إنسان ما، فهو يعني الإنسان المستجيب لدعوته الخلاصية بكامل حريته، والتي لا تتعارض مع سبق معرفة الله لقراره، ومن ثَمَّ نَيْل هذا الإنسان لنعمة الاختيار الحقيقي، واستكمال مسيرة خلاصه، من خلال رؤية الآب له في شخص ابنه يسوع المسيح، الذي بالإيمان باسمه يتبرَّر الجميع.

ونحن لا نستطيع بجهدنا البشري، وإدراكنا الإنساني المحدود أن نَعي علَّة أو سبب سبق معرفة الله لمن عيَّنهم واختارهم؛ فهذا أمرٌ فائق لعقولنا. ولكننا قد نستطيع الاقتراب من بعض الفهم لمعنى المعرفة السابقة، إذا أدركنا أن الله من أجل تحقيق قصده في خلاصنا قد وهبنا أيضًا نعمة الإيمان، حيث يقول: «لأنه قد وُهِب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط...» (في ١: ٢٩). وكذلك أوهَبنا روحه القدوس ليعطينا القدرة على إتمام الأعمال الصالحة والمرضيَّة، التي سبق وأعدَّها لنا لكي نسلك فيها: «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة، قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أف ٢: ١٠)، فمحبة الله لنا في ابنه هيَّأت للمدعوِّين والمختارين

الحقيقيين، أن تكون لهم القدرة على الإيمان بابنه وعمل مرضاته ووصاياه. كما أنَّ الله – بسابق علمه الفائق – قد عرف من هم أولئك المتجاوبون مع دعوة نعمته المقدسة؛ لذلك قيل إنه عَرَفهم، وبالتالي عيَّنهم ليكونوا مختارين حقيقيين لدعوته، متشبِّهين بصوره ابنه يسوع، فيتبرَّروا بدمه، ويتمجَّدوا به، فيكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين (انظر رو ٨: ٢٩).

فالتعيين المُسبق في الكتاب المقدس يحمل معنى الاختيار المسبق أيضًا للمختارين الحقيقيين، وهذا يوضِّح لنا المنظور الإلهي الذي يراهم الآب من خلاله؛ أي من خلال رؤيته لهم في شخص ابنه المتجسِّد، وقبولهم لدعوته والإيمان به، حيث ينطبع برُّ المسيح على هؤلاء المختارين، فيكون لهم السلطان – بكامل حريَّتهم – أن يقبلوه ويصيروا أبناء لله من قِبَله، ويكونوا بالضرورة هم المدعوِّين والمعروفين والمعيَّنين والمختارين لميراث الحياة الأبديَّة، وبالإيمان باسمه والسلوك في وصاياه والتمثُّل بشبه حياته بيننا، يقدرون بنِعمتِه أن يتمِّموا خلاصهم بخوف ورعدة، فيتمُّ قصد الله في خليقته الجديدة، وتَنحَلُّ كل ألغاز أحجية الخلاص المذخَّر لنا عند الآب منذ إنشاء العالم.

هل يعني مجرد قبول الدعوة تمام الخلاص؟
وهل يعني عدم الاختيار الرفض أو الحرمان من الله؟

من المهم أنْ ندرك أنَّ المختارين أيضًا – إن لم يثبتوا في دعوتهم واختيارهم – فإنهم وحدهم يكونون متسبِّبين في فقدان رجاء خلاصهم، وهذا يتضح لنا من قول بطرس الرسول: «لذلك اجتهدوا أيها الإخوة أنْ تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين» (٢بط ١: ١٠). فإسرائيل شعب الله المختار، كانت له كل عهود الحبّ المجاني الموهوبة له من الله، والتي قطعها مع آبائهم إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهي وعود بلا ندامة، فإنهم: «من جهة اختيارهم أحباء» (رو ٩: ٢٨)، ولكنهم تذمَّروا على الله، ورفضوا دعوته، وأغاظوه حتى سَخَط عليهم، وأقسم في غضبه أَلاَّ يدخل أرض الموعد ويرثه واحد ممن لم يُطيعوه، وذلك بحسب ما يكتب بولس الرسول بالروح: «ولمن أقسم؟: "لن يدخلوا راحته" إلاّ للذين لم يطيعوا؟» (عب ٣: ٨)، وذلك برغم سابق كونهم مختارين! وهذا ما حدث لأبنائهم – من الكتبة والفريسيين – الذين ازدروا بعهود النعمة، ولم يستمعوا

لصوت الدعوة الإلهية، ورفضوا مشورة الله مِن جهة أنفسهم، فاستحقُّوا أنْ يُسلَّموا إلى ذهنٍ مرفوضٍ، ويكونوا مهدَّدين بفقدان خلاصهم، مع أنهم من شعب الله المختار والمدعو بكرًا لله.

إذن هل يعني رفض الله لإسرائيل سقوط وعد الاختيار السابق له؟ بالقطع، لا . لم يسقط الوعد بالاختيار لإسرائيل الحقيقي، لأنَّ ليس كل شعب إسرائيل قد سقطوا، وأيضًا كما يقول بولس الرسول: «لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون» (رو ٩: ٦)؛ وأيضًا قوله: «أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله، بل أولاد الموعد يُحسَبون نسلًا» (رو ٩: ٨)، فالمرفوضون من إسرائيل هم من كانوا فقط أبناء لإبراهيم حسب الجسد، وليس حسب الإيمان والروح والوعد لإبراهيم المؤمن، ولم يكونوا أمناء على ميراث إيمان أبيهم إبراهيم المؤمن؛ الذي لمَّا دُعيَ أطاع، لذلك استحقَّ أنْ ينال البركة والمواعيد من الله. وكلُّ من هو في المسيح يسوع هو ابن للموعد وابن لإبراهيم وابن لله! فالله قد أعطى كل الذين قبلوه أن يصيروا أبناءً له.

ممَّا سبق يظهر لنا أن اختيار الله هو أمر مستقلٌّ تمامًا عن اختيارات الإنسان، فالله كإله متعالٍ ومُدرِك بعلمه السابق، قد عرف وعلِم من هو الإنسان الذي سوف يختار الله ويقبله كإله له، فهذا صار مختارًا من الله ومدعوًّا منه. وكأننا نقدر أنْ نقول **إنَّ اختيار الله هو للإنسان الذي يختار الله!** أمَّا اختيارات الإنسان فقد تُركت لحرية الإنسان ليحدِّدها بنفسه – إن كانت طريق الحياة أو طريق الموت – مع منحه الفرصة للتعبير عن محبته لله واستحقاقه لمواعيده وإحساناته، وتعضيده بالرحمة والمعونة ونعمة الروح القدس لإرشاده وتشجيعه، حتى يختار طريق الحياة والخلاص، الذي هو غاية قصد الله للإنسان الذي أحبَّه. أما الاختيار الخاطيء للإنسان، أو سقوطه بالبعد عن محبة الله والإيمان بخلاصه والتهاون في التصاقه بمصدر حياته، فإنه سيجلب عليه حكم الموت والرفض والدينونة.

كذلك اختار الرب يسوع أيضًا لنفسه رُسلًا وخواصًا مِن بين كثيرين، كما كتب القديس لوقا البشير: «واختار منهم إثني عشر الذين دعاهم أيضًا رسلًا» (لو ٦: ١٣)، ولكنه

يتحدث أيضًا عن ارتداد تلميذه يهوذا – الذي اختاره – من بينهم، وسقوطه من الدعوة بقوله: «أجابهم يسوع أَليس أنِّي أنا اخترتكم الإثني عشر وواحد فيكم شيطان» (يو ٦: ٧٠)، وأيضًا قول الرب: «قال له يسوع "الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلاَّ إلى غسل رجليه، بل هو طاهر كله. وأنتم طاهرون ولكن **ليس كلكم" لأنه عرف مُسلّمه**» (يو١٣: ١٠-١١). ويُحدِّثنا أيضًا بولس الرسول عن تلميذه ديماس فيقول: «لأن ديماس قد تركني إذ أحب العالم الحاضر» (٢تي ٤: ١٠)، كما يحذِّرنا القديس بولس في رسالته إلى العبرانيين من خطورة الارتداد بعد قبول الدعوة بقوله: «لأن الذين استُنيروا مرة، وذاقوا الموهبة السماوية... **وسقطوا**، لا يمكن تجديدهم للتوبة...» (عب ٦: ٤-٦). وهكذا نرى دائمًا أنَّ إبليس لا يكل عن أنْ يجتذب إليه، ويُسقِط ولو أمكن المختارين أيضًا، ليُضلَّهم عن طريق دعوتهم وخلاصهم: «لأنه سيقوم مسحاء كَذَبة وأنبياء كَذَبة ويُعطون آياتٍ عظيمة وعجائب، حتى يُضلُّوا لو أمكن المختارين أيضًا» (مت ٢٤: ٢٤).

نرى إذن، أنَّ مجرد الاختيار لايضمن وحده تحقيق خلاص الإنسان الموهوب له مجَّانًا من الله، بل يستلزم الأمر إراداة قوية وصادقة بكامل الحرية من الإنسان في تكميل هذا الخلاص، والختم على استحقاق نيله، وذلك بالجهاد حتى الدم، بإيمانٍ صادق وحبٍّ كامل، وتسليم حقيقي للذي دعاه إلى مجده العظيم.

أمَّا **بخصوص عدم الاختيار**؛ فهناك **أمران**:

الأول: إنَّ الرفض، أو عدم الدخول في دائرة الاختيار والتعيين، إنما يرجع إلى الإنسان نفسه. وأمَّا التعليم بأنَّ الرفض المسبق أو الاختيار للرفض بسبب سلطان الله، أو بسبب سابق علمه ومشيئته، فهو تعليم خاطئ وغير مقبول. لأنَّ عِلْم الله السابق لا يمكن أن يتعارض مع عدله، لأنه مكتوب **إنه يدين المسكونة بالعدل والشعوب بالاستقامة**. ومِن ناحية أخرى فإنَّ الرفض في الحقيقة هو نتيجة وليس سببًا، فالرفض يحدث بسبب إرادة الإنسان الحرة والمتعارضة مع قصد الله الخلاصي له، ومن ثَمَّ فإن أصرَّ الإنسان على شروده وعدم استجابته لدعوة الخلاص، فلا مناص من وقوعه في دائرة التخلي والرفض؛ كما يقول معلمنا بولس الرسول عنهم: «... أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض» (رو ١: ٢٨).

الثاني: إنَّ عدم الاختيار لا يعني بالضرورة التخلي أو الرفض، كما في مثال: إسحق وإسماعيل، وأيضًا: يعقوب وعيسو. فالله قد بارك الكل، ولكن اختصَّ مختاريه – بسابق علمه – بنوع أكبر مِن العطايا، مقابل تحمُّلهم لقدرٍ أعظم مِن المسئوليات والمهام، وذلك وفقًا لما يعلمه – كخالق – عن استعدادهم القلبي الرائع، وقبولهم وخضوعهم لإرادته بكل طاعة وتواضع، مثلما كانت القديسة العذراء مريم، التي أجابت على بشارة الملاك لها بقولها: «هوذا أنا أمة الرب. ليكُنْ لي كقولك» (لو١: ٣٨). وكما نعلم فإن نجمًا يفوق نجمًا في المجد، وهناك مَن أُعطيَ خمس وزنات، ومَن أُعطيَ وزنتين، وهكذا كل واحد على **قدر طاقته،** مِن الإيمان والمحبة والاتضاع، دون أي تمييز أو ظلم من الله الواهب الجميع من نعمه.

إذن، **ما معنى القول: «أحببت يعقوب وأبغضت عيسو»** (رو٩: ١٣). يلزم بداية أن نقول إنَّ هذا الاقتباس الذي أورده القديس بولس الرسول لم يكن المقصود به اسمَيْ هذين الشخصين بحد ذاتهما، بل قصد بهما الشعبين المتسلسلين منهما، لأنَّ الله منزَّه عن نسبة البغضة إليه (من حيث التعبيرات البشرية)، وكذلك لأن الله لم يَبخلْ بنوع ما من البركات كانت لعيسو أخي يعقوب أيضًا، ولكن ما يجب علينا إدراكه من هذا النصّ هو أن الله ملكٌ مطلقٌ له أن يُظهِر نعمته لمَنْ يشاء ويُمسكها عمَّن يشاء، فهذا حقٌّ مطلَق لله الخالق، كما أنه أيضًا لا يُجبِر الإنسان على قبوله أو طاعته بموجب هذا السلطان أو القضاء أو يعاقبه لسابق المعرفة، فهو يترك الإنسان الذي لا يطيعه ولا يستجيب لدعوته ويصنع الشر، فتتخلى النعمة عن ذلك الإنسان، ومن ثمَّ فلا مناص من سقوط هذا الإنسان، وخروجه من دائرة الاختيار والنعمة، مثلما حدث مع فرعون الذي قسَّى الربُ قلبه فتركه لمشورات قلبه الشريرة فهلك. فعلَّة عدم قبول بني عيسو ورفضه هو وبنيه، كانت بسبب تركهم عبادة إله آبائهم وبعدهم عن تنفيذ وصاياه والاختلاط بالأمم ومشاركتهم في عبادة الأوثان. كما أنَّه يوجد سبب آخر لهذا القول، وهو أنَّ الروح القدس على لسان بولس الرسول أراد أن يوضِّح لنا مدى رحمة الله وخيريَّته للإنسان، وذلك بإرادته الحرة الفائقة عن الإدراك، وأنَّه هو وحده صاحب العطية والهبة الخلاصية، التي تظهر لنا غايته وقصده مِن خلاصنا، باختيارنا لدعوة الخلاص المجاني؛ وذلك لئلا يفتخر

أحدٌ بأنه هو الذي يخلّص نفسه بأعماله، بل إنَّ الأمر كله منوط برحمة الله ومحبته لنا فضلًا، والتي أعلنها الرب يسوع حينما قال: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦)، ولذلك يؤكد بولس الرسول حكمة مقاصد الله في اختياره وإعلانه هذا، ليقطع الأمر على المعتمدين على برِّهم الذاتي وأعمالهم، فيكتب بالروح: «لكي يثبت قصد الله **حسب الاختيار، وليس مِن الأعمال** بل مِن الذي يدعو، قيل لها: "الكبير يُستعبَد للصغير". كما هو مكتوب: "أحببت يعقوب وأبغضت عيسو"» (رو ٩: ١١-١٣)، «فإذًا هو يرحم مَن يشاء ويُقسِّي مَن يشاء» (رو ٩: ١٨).

فإن كان الله يصنع أمرًا مقضيًّا به على الأرض: (انظر رو٩: ٢٨)، فهذا الأمر هو **قصده الإلهي،** أي الخلاص بالإيمان باسمه في شخص يسوع المسيح، لأن غاية الناموس هي المسيح للبرِّ للذين يؤمنون. أمَّا دور الإنسان هنا وقصده فهو يتحقَّق بالإيمان باسمه، لأن كل من يؤمن به لا يخزى. وهذا الإيمان هو إيمان إرادي حرّ عامل بالمحبة، وشاهد على صدق مواعيد الله، مدعَّمًا بأعمال صالحة قد سبق الله فأعدَّها للذين يؤمنون باسمه.

أخيرًا نقول، إنه كما أنَّ عدم الاختيار لأعمال أو مهام محدَّدة من الله للإنسان لا تعني رفض الإنسان أو حرمانه من العطايا والنِعَم، كذلك فإنَّ الاختيار وحده – بحسب إدراكنا البشري – ليس ضامنًا للخلاص وميراث الحياة الأبدية، مِن دون طاعة للدعوة، وثبات في الإيمان، وحمل للصليب، وجهاد حتى الدم.

****

دير القديس أنبا مقار

بتصريح سابق من الأب متى المسكين بالإعلان عن مشروع معونة الأيتام والفقراء (مشروع الملاك ميخائيل)، حيث يعول هذا المشروع منذ عام ٢٠٠٠ أكثر من ألفين من العائلات المُعدمة، يمكن تقديم التقدمات في رقم الحساب الآتي:

00211300000153

دير القديس أنبا مقار

بنك كريدي أجريكول مصر. فرع الميرغني

****